محنة المسلمين في العهد المكي

رواية

تأليف

د. سليمان بن عبد الله بن مديد السويكت

أستاذ مشارك في التاريخ الإسلامي

كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة التوبة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

تطلب جميع منشوراتنا من
مكتبة التوبة
المملكة العربية السعودية
الرياض (١١٤١٥)- ص. ب. (١٨٢٩٠)
ت/ ٤٧٦٣٤٢١ فاكس/ ٤٧٩٠٤٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

إن الحمدلله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد :

فإن المسلم في عصرنا الحاضر يعيش في أكثر البلاد أزمات مختلفة على المستوى الديني والإجتماعي والثقافي والإقتصادي والسياسي ، وإذا كان يعيش ضمن أقلية في بلد من بلاد الكفر ، فإن المشكلة قد تتضاعف والبلاء يزداد ويتفاقم ، والمحن تتعاوره ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يَصْمُدُ لذلك إلا من آتاه الله تعالى إيماناً راسخاً وعزيمة نافذة وقدرة على التحمل والصبر. وإن ما يحدث اليوم للمسلمين ليس غريباً ولا جديداً ، بل بدهي طبيعي ، لأن معركة الإسلام مع الكفر ما زالت قائمة ، وستظل كذلك ما دام هناك كفر وإيمان . وما يحدث اليوم حدث لسلفنا الصالح مثله بالأمس ، لتلك الصفوة التي اختارها الله تعالى لنصرة نبيه وصحبته ، وحَدَثَ لنبينا نفسِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم من محنة الأذى والفتنة ما لم يحدث مثله لأحد من قبل ، فصبر الرسول ﷺ ، وصبر الصحابة رضوان الله تعالى

عليهم على ما أصابهم صبراً كان مضرب الأمثال ، أذهل العقول ، وأغاظ الكفار ، ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) ، ولكن الله عز وجل أمهل ولم يعاجل بالعقوبة ، وحقق موعوده بنصر المؤمنين الصادقين ، ومكّن لهم في الأرض ، وجعل لهم العقبى في الدنيا والأخرى.

وقد رأيت أن موضوع (محنة المسلمين في العهد المكي) موضوع حيوي جدير بأن تركز عليه الأضواء ، لأنه ذو علاقة وطيدة بحاضر العالم الإسلامي اليوم ، وما يعيشه من محنة وبلاء ولأنه ـ حسب علمي ـ موضوع بكر لم تتناوله دراسة علمية حديثة موثقة ، ولأنه ذو فائدة كبيرة للمتخصص في ميدان الدراسات التاريخية ولغير المتخصص ، فأحببت أن أتناوله بالدراسة ، لجمع شتاته ، وتحليل كثير من مسائله ، واستنباط ما تيسر من عظاته وعبره ، ليقف المسلم الداعية والمسلم المُمْتَحَن على شيء مما أصاب أفضل البشر قاطبة محمداً ﷺ وما أصاب أفضل الأجيال ، جيل الصحابة الكرام من محنة الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله عز وجل ، لعله يجد في ذلك أسوة صالحة أو قدوة طيبة تشحذ الهمة وتذكي العزيمة على التمسك بهذا الدين ، ثم تبليغه للآخرين مهما تكاثرت العقبات واشتدت المصائب.

وقد حاولت في هذا البحث ـ قدر الإمكان ـ الإعتماد على المصادر الصحيحة الموثوقة مبتدئاً بكتاب الله عز وجل ، ومثنّياً بكتب السنة ، ثم رجعت إلى المصادر المعتبرة في السيرة النبوية ، كسيرة ابن إسحاق برواية يونس بن بكير ، وبرواية ابن هشام عن شيخه زياد البكائي ، وطبقات ابن سعد ، وأنساب الأشراف للبلاذري ، وقد احتوى هذا الأخير على مادة خصبة وثرية عن موضوع هذا البحث وأفدت منه فوائد جمة . كما استفدت

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٤٦).

من بعض المصادر الفرعية المتأخرة في السيرة النبوية وغيرها .

ورأيت أن يتم عرض المادة بثلاثة فصول ، الأول منها خاص بما أصاب الرسول ﷺ نفسه من محنة الأذى والفتنة ، والثاني يعرض ما أصاب المسلمين الأولين من محنة الأذى والفتنة ، والثالث يتحدث عن كفار قريش الذين حاولوا فتنة الرسول ﷺ والمسلمين عن دينهم ويعرض مواقفهم المتعددة في هذا المجال .

ولعلي بهذا أكون قد ساهمت ـ ولو بجهد المقل ـ في تسليط الضوء على جزء مهم من سيرة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأسأله جل شأنه أن يغفر الخطأ ، ويجزل المثوبة ، ويكتب النفع ، إنه سميع مجيب .

المؤلف

الفصل الأول

ما أصاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم

نفسه من محنة الأذى والفتنة

بسم الله الرحمن الرحيم

في تلك الساعات الأولى التي أشرقت فيها شمس الرسالة بعد تلقي النبي ﷺ الوحي من ربه عز وجل ، نستمع إلى ذلك الحوار الذي جرى بينه وبين ورقة بن نوفل[1] :

«فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أوَ مخرجيّ هم ؟ ! قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . .»[2] .

يا لله ! ما هذه البشرى تمتزج بالألم ؟! فالقسّ ورقة بن نوفل يُطمئن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ما جاءه هو الوحي من عند الله عز وجل ، وأنه نبي هذه الأمة لا ريب ، ولكن في الوقت نفسه يتحدث عن إخراج قومه ومعاداتهم له ، فيتساءل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي ، ابن عم خديجة ـ زوجة النبي رضي الله عنها ، حكيم جاهلي ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وتنصر ، وكان يكتب ويقرأ بالعبرانية ، أدرك عصر النبوة ولم يدرك الدعوة ، حيث توفي بعد أول نزول للقرآن ، ذكره بعض العلماء في الصحابة . أنظر صحيح البخاري ١/٣ ـ ٤ (دار الدعوة ، اسطنبول ١٤٠١ هـ) ، وابن قتيبة : المعارف ص ٥٩ ، (تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر ١٩٨١ م) ، وابن يوسف : سبل الهدى والرشاد ٢/٣٢٦ وهو المشهور بـ (السيرة الشامية) تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٣٩٤ هـ).

(٢) صحيح البخاري ١/٤٠٣.

باستغراب وتعجب ـ وحقّ له ذلك ـ أوَ مخرجيّ هم؟! لأنه يعرف مدى التجلة والاحترام له بين قومه بسبب صفات النبل والفضل التي اشتهر بها بينهم فما يعرف إلا (بالأمين) لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه[1] . وجاء في رواية ابن إسحاق « ولتُكذّبنّه ، ولتُؤذينّه ، ولتُخرجنّه ، ولتُقَاتلنّه »[2] ، عقبات وعقبات ستعترض الطريق ، أفيكون التكذيبُ لأصدق إنسان على ظهرها يومذاك؟! والإيذاءُ لمن كفَّ شره عن الناس ، والإخراجُ لمن أحب قومه وبلده ـ وكانت مكة أحبَّ البقاع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، عبّر عن ذلك يوم أخرجوه منها فعلاً فقال : «والله إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[3] ـ والقتالُ لمن اجتمعت فيه كل صفات الفضل والنبل والشرف ولمن لا يريد لقومه إلا الخير ، إذن فليوطن رسول الله ﷺ نفسه على ما سيصيبه في هذا الطريق الجديد الذي سيسلكه ، وليكن الصبر والثبات مهما كانت العقبات ، قال ابن اسحاق : «ثم تتامّ الوحي إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مؤمن بالله تعالى مصدق بما جاءه منه ، قد قَبِلَه بقبوله ، وتحمّل منه ما حمّله ، على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسول بعون الله تعالى وتوفيقه، لما يلقون من الناس وما يردّ عليهم ، مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى»[4]، وقد فتر الوحي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم[5] ، وأبطأ عنه التنزيل بعض الإبطاء حتى ضاق صدره ، وفرح كفار قريش بذلك فقال

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٢١ (دار صادر ، بيروت).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٧٠ (تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، مع كتاب الروض الأنف).

(٣) سنن الترمذي ٥/٧٢٢ ، حديث رقم ٣٩٢٥ (تحقيق ابراهيم عوض ، دار الدعوة اسطنبول ١٤٠١ هـ) ، وسنن الدارمي ص ٦٣٥ (دار الدعوة ، اسطنبول ١٤٠١ هـ) .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٧٩ .

(٥) صحيح البخاري ١/٤ .

بعضهم : ودّعه ربه وقلاه ، فأنزل الله عز وجل سورة (الضحى)[1] ، يبين له فيها كذب ما زعم الكفار وأنه ما تركه وما أبغضه منذ أحبه . ثم مكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مكة ثلاث سنوات يدعو إلى الله تعالى سراً ، لا يفاتح بأمر الدعوة إلا من يثق به من أهل العقول والفطر السليمة ، ويحرص في الإختيار على انتقاء العناصر الأكثر جدارة وكفاءة ومقدرة على تحمل المسؤولية وحمل الأمانة ، ومع أنه كان غير مستعلن في دعوته أمام ملأ قريش إلا أنهم قد شَنِفُوا له وتجهّموه[2] وكانوا ينظرون إليه بازدراء واحتقار فيقولون إذا مرّ عليهم في مجالسهم ـ وهم يشيرون إليه ـ : هذا غلام بني عبد المطلب يكلم من السماء»[3] ، ولم يزالوا كذلك حتى أعلن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدعوة إلى الله عز وجل وأظهر عيب آلهتهم وأخبر أن آباءهم ماتوا على كفر وضلال وأنهم في النار ، فعندئذ نابذوه ورموه بالبهتان وجاهروا في عداوته وأظهروا البغضاء لـه وآذوه ، وآذوا من اتّبعه بكـل ما أمكنهم من الأذى[4] .

ولما أجمعت قريش على عداوة النبي ﷺ وعلى خلافه حَدَبَ عليـه عمه أبو طالب[5] وقام دونه وحنا عليه وأحسن إليه وحامى عنه وخالف قومه في

---

(١) صحيح مسلم ١٤٢١/٢ ، رقم الحديث ١٧٩٧ (دار الدعوة ، اسطنبول ١٤٠١ هـ) . والبلاذري : أنساب الأشراف ١٠٩/١ (تحيق د. محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م) .

(٢) ابن يوسف : سبل الهدى ٤٢١/٢ ، ومعنى شنفوا له : أي أبغضوه ، وتجهموه : أي تلقوه بالغلظة والوجه الكريه .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٩٩/١ ، والبلاذري : أنساب الأشراف ١١٥/١ .

(٤) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٥ ، (الطبعة الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤ هـ).

(٥) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، أبو طالب ، عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكافله ومناصره وحاميه من قريش ، من أبطال بني هاشم ، مع قربه من الرسول وتصديقه به لم يسلم خوفاً من العار أن يلحقه أو يلحق بنيه ، توفي في السنة الثالثة قبل الهجرة ، العاشرة من البعثة ، وهو ابن بضع وثمانين سنة . انظر عنه ابن سعد : =

ذلك مع أنه كان على دينهم وعلى ملتهم ، ولكن الله تعالى وضع حُبَّه في قلبه حباً طبعياً لا شرعياً[1] . وقد دعا أبو طالب بني هاشم وبني المطلب[2] إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهب[3] فقد نَصَبَ لعداوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وظافَرَ قريشاً على أخيه أبي طالب[4] ، وعلى الرغم من أن أبا طالب كان ذا منزلة وسن وشرف في قومه فلم يَسْلَم رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أذى قريش في كل الأحوال ، فقد اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أسلم معه ، ولذلك أغروا به سفهاءهم ، فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالصفات الرذيلة والنقائص ، وهمزوه واستهزأوا به وخاصموه[5] ، لكنهم لم يستطيعوا البطش به .

وقد حصل للرسول صلوات الله وسلامه عليه ما حصل له من صنوف الأذى والفتنة مما سنشير إليه ـ إن شاء الله تعالى ـ وذلك مع قيام عصمته لينالله

= الطبقات الكبرى ١/١١٩ وما بعدها ، وابن كثير : السيرة النبوية ٢/١٢٢ وما بعدها ، (تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٦ هـ).

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ١/٤٦٢ .

(٢) أبناء عبد مناف بن قصي أربعة هم : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، ولكن كان بين بني هاشم وبني المطلب حلف دون بني عبد مناف ، ولهذا اختص أبو طالب بني المطلب بالدعوة إلى مؤازرته دون غيرهم من أبناء عبد مناف .

(٣) عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، أبو لهب كنّاه أبوه بذلك لحسنه وإشراق وجهه، وهو عم رسول الله ﷺ ، وأحد الشجعان الأشراف في الجاهلية ، كان غنياً عتياً ، ومن أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين ، فيه نزلت سورة المسد ، وكانت وفاته بعد معركة بدر بأيام ، ولم يشهدها مع المشركين .
انظر عنه ابن كثير : السيرة النبوية ١/٤٦١ ، والديّار البكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ١/١٦٩ (مؤسسة شعبان ، بيروت).

(٤) ابن إسحاق : السير والمغازي ـ رواية يونس بن بكير ـ ، ص ١٥٠ . (تحقيق سهيل زكار ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ).

(٥) سيرة ابن هشام ٢/٣٣ ، ١٠٣ .

حظه من البلاء وليتحقق له الصبر الذي أُمر به كما صبر أولو العزم من الرسل والأنبياء عليهم السلام[1] وليتبوأ المكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي أعد الله تعالى له .

وننتقل الآن إلى عرض نماذج مما حصل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مختلف أنواع الأذى والفتنة ، وما تفتقت عنه أذهان كفار قريش من أساليب المكر والصدّ عن سبيل الله تعالى . فمن ذلك ، أنهم كانوا يزعمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا (يستغوي) أي لا ينقاد له ويتبعه على الإسلام إلا الأولاد والأحداث والعبيد والإماء[2] ، وقد كذبوا في ذلك فغالبية المسلمين الذين اتبعوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في تلك الفترة المبكرة كانوا ينتمون إلى أشهر القبائل المكية وأعلاها سلطة ومكانة ، وكانوا من الأغنياء ومتوسطي الحال ، يدل على ذلك استعراض أسماء السابقين الأولين الداخلين في الإسلام[3] أما الأولاد والعبيد والموالي فنسبتهم يومذاك كانت قليلة في صفوف المسلمين ، وكانت قريش تهدف من إثارة هذه الدعوى إلى الإيحاء بأن دعوة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم دعوةٌ تافهة لا وزن لها ولا قيمة بدليل أن أصحاب العقول النيّرة والألباب

---

(١) العامري : بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل ٨٢/١ ، ١٢١ . (شرح محمد الأشخر اليمني ، دار صادر ، بيروت).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢٢٩/١ .

(٣) كان أول الناس إسلاماً خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، ثم علي ابن أبي طالب وكان في سن الصبا آنذاك ، ثم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ثم أسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وطلحة بن عبيد الله التيمي ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف الزهريان ، ثم كان من السابقين بعد هؤلاء خالد بن سعد بن العاص الأموي ، وأبو عبيدة بن الجراح الفهري ، وأبو سلمة والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون الجمحي ، وأخواه قدامة وعبدالله ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد العدوي ، وابنة عمه وزوجه فاطمة بنت الخطاب. . إلخ . انظر سيرة ابن هشام ٢٧٧/١ وما بعدها.

الراجحة من ملأهم لم يكترثوا بها ولم يلقوا لها بالاً ولم يؤمنوا بها .

ومما كانوا يؤذون به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العبْسُ والتكشيرُ بوجوههم إليه[1] . وجَعْله ينظر إلى ما يكره من العورات ، فقد جاء رجل من قريش بمكة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا محمد ألم يبلغني أنك تنهي عن السباء ـ يعني عن سباء العرب ـ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بلى ، فتحول الرجل فكشف عن إسته في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم[2] ، ويؤذونه في ضرب بناته[3] . ويحثو سفهاؤهم التراب على رأسه ، وكانوا يَنْضِدون الفرثَ والأفْحَاث[4] والدماء على بابه ، ويطرحون رحم الشاة في برمته ، ويسبّونه ويهجونه ، ويعذبون أصحابه وأحباءه وهو ينظر[5] ، ويستهزئون به ، ويريدون أن يوقعوه في الحَرَج وذلك مثلاً عندما أرسلوا إليه ـ وكان جالساً في ناحية المسجد ـ رجلاً من إراش باع إبلاً له على أبي جهل[6] فمطله بأثمانها ، فقال ذلك

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٧٤.
والسيوطي : الخصائص الكبرى ١/١٣٦ (دار الكتب العلمية ، بيروت).
(٢) ابن إسحاق : السير والمغازي ص ٢٣٤.
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها.
(٤) الأفحاث جمع فَحِثْ ، وفَحِثُ الكرش شيء متصل بها ذو أطباق وأجواف . انظر المعجم الوسيط ٢/٦٧٥ ، (من إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار المعارف بمصر١٣٩٣ هـ).
(٥) السهيلي : الروض الأنف ٢/٤٨ (تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الفكر ، بيروت).
(٦) عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، كناه الرسول ﷺ (بأبي جهل) بدلاً من كنيته السابقة (أبي الحكم) ، وهو فرعون هذه الأمة ، من أكابر رجال الملأ في قريش ، كان شديد الأذى للنبي ﷺ ـ مع معرفته بصدقه ـ وللمسلمين عامة ، نزل في شأنه آيات من القرآن الكريم ـ سنذكرها في حينها إن شاء الله تعالى ـ ، قتل يوم بدر كافراً وهو ابن سبعين سنة.
انظر عنه ، البلاذري : أنساب الأشراف ١/١٢٥ وما بعدها ، والبيهقي : دلائل النبوة ٢/١٨٩ وما بعدها (تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥ هـ).

الرجل لهم وهم في ناديهم جلوس من يساعدني في أخذ حقي؟ فأشاروا له إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لِمَا يعلمون من العداوة بينه وبين أبي جهل، فذهب إليه فقام معه إلى أبي جهل وأمره بإيفاء الرجل حقه فامتثل لذلك أسرع ما كان[٢].

إتهام الرسول ﷺ بعلل عقلية وروحية وخلقية :

ومن أبرز ما كانوا يؤذون به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلقيبه بالألقاب الشنيعة ، وتوجيه التهم والعلل العقلية والروحية والخُلقية إليه ، كالجنون ، والسحر ، والشعر ، والكهانة ، والكذب ، والإفتراء ، والاستعانة بالآخرين . وغير ذلك مما حكاه الله تعالى عنهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، فمن الآيات التي أشارت إلى وصفهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنون ما يأتي :

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[٢].

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣].

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٤].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾[٥].

---

(١) انظر تفصيل القصة عند ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٢) سورة الحجر، آية ٦ .

(٣) سورة القلم ، الآيات ، ٥١ ـ ٥٢ .

(٤) سورة الصافات ، الآيات ٣٥ ـ ٣٧ .

(٥) سورة سبأ ، الآيات ٧ ـ ٨ .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[1]

ويفهم من هذه الآيات أنهم لم يكونوا يقصدون أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان مريضاً مخبول العقل أو أنه مبتلى بصرع ، وهي الصفات التي تلازم المريض بالجنون ، وهذا مما لا يعقل عنهم في حد ذاته لأنهم يرون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتلو الآيات القرآنية الرائعة في بلاغتها ونصاعتها وقوتها ، والتي كانت تنفذ إلى أعماقهم على الرغم من مكابرتهم وجحودهم . فكانت ألسنتهم تنطق بالحق والصدق فتفضحهم في دعاويهم الكاذبة[2] ، وإنما كانوا يقصدون رمي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغرابة الأطوار والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشّر به وينذر ، على ما تعود الناس أن يرموا بمثل ذلك من يتصدى لدعوة جديدة ، أو يبدي رأياً ، أو يقول قولاً ، أو يخبر خبراً غير مألوف في المجتمع الذي يعيش فيه[3] .

ولم يكتف القرآن بحكاية هذه التهمة بل تولى تكذيبها وتزييفها وردها رداً قوياً في أكثر من مناسبة ، فإضافة إلى ما ورد في أعجاز الآيات السابقة من تكذيب لدعواهم نرى قوله تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[4] حيث يقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم مما غَمَصَه به الكفار من صفة الجنون ويؤانسه بهذا الخطاب الرقيق الذي يعتبر في أعلى درجات

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ٦٨ ـ ٧٠ .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١١/٢ .
(٣) دروزة: سيرة الرسول ﷺ ٧٢/١ (الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ .
(٤) سورة القلم ، الآيات ١ ـ ٣ .

الآداب في المحاورة[1]. وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2] ، وقوله تعالى بعد أن أقسم بالنجوم وبالليل إذا عسعس وبالصبح إذا تنفس في سورة التكوير ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[3]. فنفى الله عز وجل عن رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الآيات البيّنات ما وصفوه به من هذه الصفة التي يعرفون هم في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون فيها ،وأنه لا يصدقهم في دعواهم هذه إلا من هو مجنون حقيقة ، ولعل أبرز مثال يمكن أن نوضح به ما نقول الحادثة التالية :

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن ضِمَاداً[4] قدم مكة ،وكان من أزدشنوءة ،وكان يرقي من هذه الريح[5]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يديّ. قال فلقيه. فقال: يا محمد أني أرقي من هذه الريح ، وأن الله يشفي على يديّ من شاء ، فهل لك[6] ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده

---

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١٠٣/١ (تحقيق محمد أمين قره علي وآخرين ، طبع الوكالة العامة للنشر والتوزيع ، بيروت ودمشق) .

(٢) سورة سبأ ، آية ٤٦ .

(٣) آية ٢٢ .

(٤) ضماد بن ثعلبة الأزدي نسبة لأزد شنوءة قبيلة مشهورة في اليمن، قدم مكة في أول بعثة الرسول ﷺ فأسلم ـ كما ورد في هذا الحديث ـ وكان عاقلاً متطبباً. انظر الشفا للقاضي عياض ٤٨٣/١ .

(٥) المراد بالريح هنا الجنون ومس الجن، أنظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٦٥/٤ (بهامش كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، الطبعة السادسة، بولاق، ١٣٠٤ هـ).

(٦) أي فهل لك رغبة في رقيتي ، وهل تميل اليها؟

الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد ». قال ، فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث مرات ، قال ، فقال: لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء. ولقد بلغن ناعوس[1] البحر ، قال ، فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام ، قال فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « وعلى قومك » قال : وعلى قومي . . .[2] .

فهذا الرجل اللبيب عندما سمع مقالة قريش في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رقّ له ، وهمّ بمعالجته علّ الله أن يشفيه ، ولكنه بمجرد أن سمع منه ما سمع عرف أن ما يقال عنه إنما هو الزور والبهتان بعينه ، ولذلك استعاده ما قال ، ثم آمن به ودخل في الإسلام ، وتحمّل منه ما تحمّل .

وأما ما كان من نسبتهم إليه السحر والشعر والكهانة والكذب والافتراء والاستعانة بالآخرين وتعلُّم القرآن منهم وأخذه عنهم ، فقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك كثيراً ، ونشير هنا إلى نماذج تبين ادعاءاتِهم تلك ، وردَّ القرآن عليها:

قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[4].

---

(١) رويت هذه اللفظة بأوجه متعددة منها ما ذكر ، ومنها قاموس ، وهاتان أشهر الروايات ، ومنها : قاعوس ، وتاعوس . والمعنى أن مقالتك هذه إشتهرت في جميع أقطار الأرض شرقاً وغرباً ، وقاموس البحر : وسطه أو لجته أنظر شرح النووي لصحيح مسلم ٤/١٦٥ .

(٢) صحيح مسلم ١/٥٩٣ ، حديث رقم ٨٦٨ .

(٣) سورة ص ، آية ٤ .

(٤) سورة القمر، آية ٢ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(٢).

وقد رد الله تعالى عليهم في دعواهم هذه رداً قوياً محكماً حينما ذكر السحر وأخبر أن السحرة بعيدون عن الفلاح وأن عملهم باطل فاسد ، قال تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾(٣) ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٤).

وحملةُ القرآن الكريم على السحر ولو من باب الحكاية تتضمنُ تزييفَ نسبة السحر إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم(٥).

وقال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(٦).

وقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾

---

(١) سورة هود ، آية ٧ .
(٢) سورة الأنبياء، آية ٥ .
(٣) سورة يونس ، آية ٧٧ .
(٤) سورة يونس ، الآيات ٨١ ـ ٨٢ .
(٥) دروزة : سيرة الرسول ﷺ ١/٧٤ .
(٦) سورة الأنبياء، الأية ٥ .

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٣).

---

(١) سورة الحاقة، الأيات ٣٨ ـ ٤٨ .

(٢) سورة الفرقان، آيات ٤ ـ ٦ . قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣١٠ (دار الفكر، بيروت) تعقيباً على هذه الآية : وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم، كل أحد يعلم بطلانه، فانه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمد رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه من صغره وإلى أن بعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون كذاب . وقال تعالى : ((انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً)) سورة الفرقان، الآية ٩ .

(٣) سورة الشورى، الآية ٢٤ .